خطابٌ

في

الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والافرنجية

للمعلم بطرس البستاني

عفي عنهُ

طُبع في مطبعة المعارف في بيروت سنة ١٨٦٩

خطابٌ

في

الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والافرنجية

للمعلم بطرس البستاني

عفي عنهُ

طُبع في مطبعة المعارف في بيروت سنة ١٨٦٩

ان خطابنا هذا يحتوي على ثلاثة اقسام. القسم الاول الهيئة الاجتماعية. الثاني العادة. الثالث مقابلة عادات العرب والافرنج

القسم الاول

الهيئة الاجتماعية

ان الهيئة الاجتماعية عبارةٌ عن سكان بلادٍ او مدينةٍ لهم صوالح مشتركة او هي بالحري الحالة الناشئة من الاجتماع البشري. واساس الاجتماع البشري الحقيقي الطبيعي انما هو احتياجات الافراد ومخاوفهم وعلى ذلك بقدر ما تكون تلك الاحتياجات متسعة ومهمة والمخاوف متنوعة وقوية يكون ذلك الاساس متيناً ورباطاتهُ واسبابهُ شديدة. ومن ثم كان اساس الاجتماع البشري بين القبائل الهمل الخشنة ضعيفًا وبسيطاً وما ذلك الا لان احتياجات افرادهم قليلة في عددها دنية في قيمتها فنراهم يجوبون الفيافي والقفار كلاًّ على حدةٍ في طلب القوت والكسوة من اجسام الحيوانات التي يصطادونها بواسطة الات بسيطة يصطنعها كلٌّ منهم

لنفسهِ مما التقتهُ امامهُ الطبيعة من المواد المناسبة . وفي هذه الحالة الخشنة لا يكون فرق كبير بين الانسان واعلى طبقة من الحيوانات. ولكننا نرى هذا الاساس اقوى قليلاً في القبائل التي ابتعدت قليلاً عن حالة الخشونة كعرب البادية مثلاً فان لهم احتياجات كثيرة من جهة القوت والمأوى والملبوس ولهذا نرى بعض الانتظام في هيئتهم الاجتماعية وقد اصطلحوا على عادات وشرائعٍ لاجل المحافظة على ذلك الانتظام على قدر الامكان واذ كانوا منقسمين الى عشائر وقبائل متفرقة بعضها لبعضٍ عدو كانت مخاوفهم قوية ولهذا نرى الاجتماع البشري المحفوف بحرّاس العصبية في اعلى درجة من القوة وهكذا كلما ابعد قومٌ درجةً عن حالة الخشونة ترى احتياجاتهم ومخاوفهم تزداد شيئًا فشيئًا بقدر ذلك الابتعاد الى ان تصل الى درجة التمدن التام الذي تصل فيهِ الاحتياجات والمخاوف الى اعلى درجاتها. ولما كان اساس الاجتماع البشري الحقيقي الطبيعي احتياجات افراد البشر ومخاوفهم كانت الهيئة الاجتماعية في الكمال والنقص بحسب درجة ايفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف فان كان الايفاء والدفع مساويين للمطلوب من دون زيادة او نقصان كانت الهيئة الاجتماعية في حالة الكمال

وهذا لا يؤمل الحصول عليهِ في عالمٍ ساقطٍ كعالمنا وطبيعةٍ فاسدة كطبيعة البشر والّا فان زادت على المطلوب او نقصت عنهُ تولّد لامحالة خلل في الانتظام وعدم راحةٍ ورفاهيةٍ في المعيشة وذلك بقدر النقص او الزيادة . وعلى ذلك يكون ايفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف دستورًا يمكننا ان نتوصل بهِ الى معرفة حالة كل جماعة منتظمة هل هي وافيةٌ بالمقصود او زائدةٌ عليهِ او ناقصة عنهُ ومعرفة مقدار النقص والزيادة لان سعادة الانسان تقوم بنوال مرغوباتهِ على اتم منوالٍ بحسب درجتهِ من التمدن

ثم ان احتياجات الانسان على اقسام منها احتياجات طبيعية وهي ما يلزمهُ لقيام وجودهِ من القوت والكسوة والماوى ولوقاية ذلك الكيان وتلك اللوازم . وهذه الاحتياجات تزداد عددًا واهمّية كلما تقدم درجة نحو كمال التمدن لان الذين يكتفون في امر المعيشة بملةٍ من الدقيق وثوبٍ من الجلد وبيتٍ من الاغصان اوقبة الفلك تكون احتياجاتهم اقل جدًّا من احتياجات الذين وصلوا الى درجة من التمدن بحيث لايمكنهم ان يحافظوا على وجودهم الا باطعمةٍ الطف وماوى احصن وملبوسٍ اكمل . وكذلك الاقوام الذين لم يزالوا في حالة الخشونة تكون قلوبهم

فارغة على الاكثر من المطامع والخداع وصوالحهم متوحدة لا اشتراك بينها البتة او لها اشتراك قليل لا يلزمهم لوقاية انفسهم من المخاوف بقدر ما يلزم الذين وجدت في قلوبهم هذه المحركات من الادوات الحربية . ومنها احتياجات عقلية وهذه تقوم بما من شانهِ ان يجتذب عقول الناس اليهِ ويوجد فيها تياقة ولذة ومعرفة من شانها ان تمكنهم من قضاء واجبات الحيوة باكثر نجاح وذلك كالكتب والآلات الفلسفية . ومنها احتياجات معشرية وهذه تقوم بما يخولنا قدرة على مساعدة اصحابنا في امر الضيافة وما اشبهها وبذلك نقوي الاسباب والعلايق التي تربطنا بالجنس البشري . ومنها احتياجات ادبية وهي تقوم بما يخولنا رغبة وقدرة على عمل الخير نحو الاخرين وبهذه الواسطة نربي في انفسنا تلك الخصال التي تجعلنا اكثر اهلية لاعتبار من يشاركنا في الطبيعة . ومنها احتياجات دينية وهي تقوم بما يساعدنا على تادية تلك الواجبات التي يطلبها منا خالقنا والمعتني بنا وذلك نحوهُ ونحو انفسنا ونحو القريب لكي نكون مرضيين لهُ عزَّ وجلّ . ومنها احتياجات سياسية وهذه تقوم بمركز القوة الذي يفرغهُ الجمهور في عددٍ معين من افرادهِ من اصحاب القوة الادبية والطبيعية

والامانة لاجل حفظ نظامهِ ووقايتهِ من الخلل والمحافظة على دمهِ ومالهِ وعرضهِ . ومنها احتياجات أكمالية وهي تقوم بامور لايضطر الانسان اليها غير انها تكون ذات منفعة لرفاهية جسمهِ ورياضة عقلهِ والحصول على شهواتهِ الطبيعية التي غرسها فيهِ باري الطبيعة وذلك كالفُرَج والات الموسيقى والملابس الفاخرة والاطعمة اللذيذة وشرب الدخان والقهوة الى غير ذلك من النوافل مما يمكن الاستغناء عنهُ في امر المعيشة الا انهُ اذ كان مباحًا للانسان ومحبوبًا عندهُ في ذاتهِ فحالما تنفتح عيناهُ اليهِ بواسطة التمدن الكثير الاحتياجات لايلذ لهُ عيش ولايحسب ان احتياجاتهِ قد قضيت على حقها اذا لم يتيسر لهُ الحصول عليهِ

فها قد رأينا ان احتياجات الانسان اجناس وتحت كل جنس انواع وتحت كل نوع افراد ولكل فرد منها خاصيات وكيفيات واحوال مختلفة بحيث لايتيسر امر ايجادها لفرد او جماعة افراد بل يستلزم اشتراك كثيرين في الغالب في ايجادها لانهُ لايمكن لانسان واحدٍ مثلاً ان يكون زراعًا وحصادًا ودراسًا ومذريًا وعتالاً ومغربلاً ومكربلاً ومكاريًا وطحانًا وعجانًا وخبازًا وان يصطنع ما يلزم لكل من هذه الاعمال من الادوات

لاجل ايجاد صنف واحد من جنس واحد من قسم واحد من احتياجاتهِ الطبيعية وهو الخبز الذي هو من اهم اصناف قوتهِ المناسب لهُ ومن طالع قصة روبنصن كروزي واطلع على ما كابدهُ من المصاعب وصرفهُ من الوقت في ايجاد الخبز عند ما اتفقهُ التقادير في الجزيرة المعروفة باسمهِ يتضح له ما تقدم باجلى بيان. وكذلك لا يمكن لانسان واحد ان يكون زراعًا وحلاجًا وغزالا وبرامًا وحائكًا وخياطًا ولا قطاعًا ونحاتًا وبناء وكلاسًا ونجارًا ولا تلميذًا ومعلمًا ولا رعية وملكًا وشيخًا اوقسيسًا لاجل ايجاد باقي احتياجاتهِ الطبيعية والعقلية والادبية والدينية والمدنية والاكمالية بل يحتاج بالضرورة الى من يساعدهُ في ايجاد تلك الاحتياجات وهكذا نتج الاجتماع البشري واذ كانت منافع هذا الاجتماع لا تنال على اتم مرام الا بواسطة القرب والاختلاط نتج من ذلك عمار المزارع ثم القرى ثم المدن ثم العواصم ولما كانت هذه الاحتياجات لا توجد كلها في مكانٍ واحد من بلاد واحدة نتج بالضرورة اتصال قرية بقرية ومدينة بمدينة وهكذا حصل الاجتماع المدني واذ كانت الاحتياجات المذكورة لا توجد جميعها في بلادٍ واحدة لان باري الكون لاجل كمال الانصالية والالفة بين الجنس البشري بحيث يصير

الجميع كعائلة واحدة جعل بحكمتهِ الباهرة لكل بلادٍ او اقليم خاصيات ومواد لا توجد في غيرهِ حتى صار العالم باسرهِ نظير سلسلةٍ تعددت حلقاتها وكانت كل واحدة منها مفتقرة الى اختها بحيث لا يتيسر حفظ تركيبها ونظامها بدونها ومن ذلك نتج اتصال البلدان واختلاط اهاليها معاً لاشتراكهم في الصوالح واذ كانت بيروت التي هي محل اقامتنا ووطننا حلقةً من حلقات تلك السلسلة العظيمة وكان مركز هذه الحلقة مهماً لنا ولسورية بلادنا لانها موصلة بين بلادنا وبين نفسها وبينها وبين البلدان الاجنبية رأينا ان نخصها بالذكر لتكون مثالاً يقاس عليهِ وعلى ذلك لنا ان نسأل ما هي حالة الهيئة الاجتماعية في بيروت واذ قد تقدمنا فقلنا ان اساس الاجتماع البشري هو الاحتياجات والمخاوف وان ايفاء تلك الاحتياجات ودفع تلك المخاوف يكونان بحسب درجة التمدن يلزمنا ان نذكر ثلاثة امور قبل الجواب عن هذا السؤال

الامر الاول ان اكثر اهالي بيروت هم من محبي السلامة والراحة العمومية واصحاب صوالح مشتركة وهم مؤلفون من ارباب الصنائع والتجار واصحاب الاملاك وولاة الامور وعدد الاوباش

فيها قليل جدًا اذا قابلناها مع مدنٍ اخرى

الامر الثاني انهُ يوجد في بيروت اشخاص من بلدان واجناس مختلفة او من اكثر الاجناس الذين تحت قبة الفلك يجمعها فريقان ابناء الشرق وابناء الغرب وهم وان اختلفوا في امر الجنسية والمشرب يشتركون في الصوالح ولاسيما التجارية والمدنية والادبية واذا شاءوا يمكنهم ان يعيشوا معًا بالامن والراحة والرغد والسعادة . نعم انهُ يوجد اوقاتًا بعض من الاوباش الذين قذفتهم طهارة بلادهم او صرامة شرائعها او اسباب اخرى الى هذه البلاد لاجل الافساد ونزع الراحة والامنية العمومية التي ربما شاركهم فيها البعض من رعاع بلادنا ولكن ما نراهُ من صحة الارتباط والالفة بين باقي الاهالي من ابناء وطن واجانب من شانها ان تصلح او تمنع وقوع ما كان يمكن وقوعهُ من الاضرار على بلدنا هذه من امثال هؤلا الاشرار

الامر الثالث ان اكثر سكان بيروت متمدنون وعواطفهم جميعًا متجهة نحو التمدن ومائلة اليهِ وهم شديدو الاهتمام في توسيع دائرتهِ في بلادهم وانتشار فوائدهِ في جهاتٍ اخر ومن ثم كانت احتياجاتهم احتياجات قوم متمدنين وكذلك مخاوفهم ولهذا لكي تكون

هيئتهم الاجتماعية موافقة لاحتياجاتهم ويكونوا هم متمتعين بنتائج تلك الحالة لابد لهم من ايفاء تلك الاحتياجات على حقها ودفع تلك المخاوف قاطبةً . واذ قد عرفنا ذلك نقول

اولاً ان احتياجات الاجتماع البشري الطبيعية في هذه البلدة من القوت والكسوة والمأوى واسباب وقايته من المخاوف باعطاء الامنية التامة على دم الاهالي وما لهم وعرضهم تكاد ان تكون مساوية للمطلوب ولا تزال بهمة وعناية اولياء الأمور اخذة في النشاط والنمو والقوة والقرب من درجة الكمال يوماً فيوماً حتى يمكننا ان نقول بالصدق والافتخار ان هذه المدينة هي امن مدينة في العالم وذلك مما زادها عماراً وجعل الناس تتقاطر اليها من كل جهة وما نراهُ من اتساع دائرة الابنية وتوسيع الازقة والشوارع واصلاح الطرقات وتيسير وسائط الاتصالية والانتقال والحركة براً وبحراً يقوي املنا بانهُ سيكون لهذه المدينة مستقبلٌ سعيد ويحمل كل من اطلع على التقدم والنجاح اللذين حصلا لها في مدة يسيرة على الاقرار بان من بها من السكان هم اصحاب همة ونشاط ونباهة واقدام لا يفوقهم فيها احدٌ من سكان الكرة الارضية واقناع من يعتقدُ باقناعهِ من اصحاب روح العصر الجديد بانها ما كانت

مرضعة للفقه والاداب في الازمان السالفة ستكون كذلك في ما ياتي وتكون موصلاً بين الغرب والشرق في كل امرٍ مفيد

ثانيًا ان احتياجات بيروت العقلية مع ما نراهُ فيها من امتداد المعارف وتكثير عدد المدارس والمطابع لا تزال قاصرة كثيرًا عن المطلوب لانهُ لا يوجد فيها ما يطابقهُ روح العصر من الكتب المناسبة لاجل فائدة وتسلية معاشر الذين يعرفون القراءة وتوليد الرغبة في تعلم القراءة في معاشر الاميين ولا محلات تحتوي علي ما تلذ مطالعتهُ من الكتب والكازتات التجارية او الجرنالات الصناعية ومع ما نراهُ من الهمة والنشاط في اعضاء الجمعية العلمية السورية وغيرهم في ايجاد ذلك نرى انهُ لم يزل باب واسع جدًّا للاصلاح والتقدم من هذا القبيل ولهذا يمكننا ان نقول بالصحة والاسف ان موجوداتها من هذا القبيل هي دون مطلوبات اهلها الذين قد اطلع كثيرون منهم على فوائد ذلك وانفتحت اعينهم نحوهُ ولا ريب ان تعذر هذه الوسائط هو من اكبر الاسباب التي تملأُ القهاوي من الشبان والشيوخ الذين يترددون اليها لاجل قتل الوقت نهارًا وتملأُ البيوت من الدومينات والشدات والطاولات لاجل قتلهِ هناك ليلاً

ثالثا ان احتياجات بيروت المعشرية هي قاصرة ايضًا فانهُ لا يوجد فيها قاعات خطب ولا مراسح لعب ولا تحف معتبرة مما من شانهِ ان يوسع دائرة العقل ويقوي عناصر الالفة ويحسن حالة الهيئَة الاجتماعية ولهذا نرى اكثر الاهالي لا يعاشرون الاَّ دفاترهم ومخازنهم ودكاكينهم وصنائعهم وملاعبهم وعماراتهم نهارًا والتامل بها والكلام عنها ليلاً وهكذا نرى الاكثرين قد ولدوا وشبوا وشاخوا ثم ماتوا ولم يعرفوا من الدنيا الا تالك الاعمال ولا التفتوا الى ايجاد او تدبير شيء يكون نافعًا لذريتهم او قريبهم او وطنهم ولهذا نرى المصالح العمومية التي يتوقف عليها نمو الهيئة الاجتماعية وراحة العموم وخير ابناء الوطن متاخرة كل التاخر وقلما يوجد لها محامٍ او نصير

وكل امرء لا خير فيهِ لغيرهِ فسيانِ عندي فقدهُ ووجودهُ

هذا على اننا نقول ان الاهتمامات الحاصلة من طرف هذه الجمعية وغيرنا في هذا الامر يقوي املنا بانهُ بهمة ونشاط اعضائها ومعاضدة سكان البلدة وتنشيطاتهم ستتيسر الوسائط المذكورة ومع التمادي تصل الى درجة تنبه افكار الجمهور الى الاضطرار اليها ومعرفة قيمتها ووجوب الاعتناء بايجادها وايصالها الى اسمى درجاتها ولابناء

الوطن القوة الكافية ادبيًا وماديًا على ايجاد ذلك باقرب وقت وايسر مرام واتم منوال

رابعًا ان احتياجات هذه المدينة الادبية والدينية ليست في حالة احسن من الاحتياجات المعشرية فان حالة الذين من واجباتهم ايجاد وتيسير تلك الاحتياجات ظاهرة لا تحتاج الى دليل وليس من مقاصدنا ولا نريد ان نتعرض الكلام عنه والبحث فيه لانه موضوع طويل عريض . والامنية التجارية التي هي من اعظم احتياجات مدينة كهذه والتي هي الدولاب والمحور الذي تدور عليه اشغال اكثر سكان هذه البلدة قد وصلت الى درجة اوجبت خللًا في الاعمال وبطئًا في الحركة وضيقة عمومية ولكن لنا الامل انه مع التمادي ستزول الاسباب التي اوجبت هذه الاحوال ويرجع دولاب الاشغال الى مركزه السابق ويجتهد الاهالي في اتخاذ التدابير والوسائل الفعالة لحفظ في ذلك المركز وذلك بواسطة اكتساب رضى واركان من بيدهم زمام الامور ودفة الاعمال ومفاتيح القوة والغنى والامنية وبواسطة تقوية رباطات الاتحاد الذي هو اعظم قوة خسرتها العرب وقهرتهم بها الافرنج

القسم الثاني

العادة

ان العادة ماخوذة في الاصل من العود ومعناهُ الرجوع والمراد بها ما تعوّدهُ الانسان من فعلٍ قبيح او عمل مليح وذلك مع التكرار والمواظبة وهي قد تكون ملكة راسخة في النفس وتعرف حينئذٍ بالخلق فاذا كانت مما لا يمكن ان يفارق صاحبهُ فتشبه بالغرائز المركوزة في البدن حتى يقال انها طبيعة خامسة وعلى ذلك يقال عادة في البدن لا يغيرها الا الكفن ومنهُ قول الشاعر

الطبع شيءٌ قديمٌ لا يحسُّ بهِ وعادة المرء تدعى طبعهُ الثاني

واذا كانت مما يصعب تركهُ اما لائتلاف الطباع عليهِ او لموافقتهِ ذوق الاكثرين فيراد بها حينئذٍ مصطلحات قوم في امر الاكل واللبس والمعاشرة وما اشبه وهذه هي المقصودة هنا

ولا يخفى ان اساس العادة انما هو الاحتياج والاحتياج العادي قد يسببهُ مزاج الهواء او الذوق او الديانة او ما اشبه وربما نتجت العادة من مصدرٍ اخر كطلب المشابهة والتقليد مثلاً وهذه ربما وافقت الهواء والذوق والديانة او خالفتها . وعند النظر في عادة قوم يمكننا ان ننظر اليها باعتبارها في نفسها مع قطع النظر عن ذوق

اهلها او من يخالفهم ونحكم بجودتها او رداءتها من حيث نفعها الذاتي او ضررها ويمكننا ان ننظر اليها باعتبار من هي جارية عندهم ونحكم بجودتها ورداءتها من حيث مطابقتها لهيئتهم الاجتماعية او عدم مطابقتها او من حيث سدها لاحتياجاتهم او عدمهِ ومن ثم كان قبول عادة عند قوم او عدم قبولها لا يجوز ان يتخذ دليلاً على حسنها او رداءتها لاننا نرى كل فئةٍ ترضى بعاداتها وتفضلها على عادات تخالفها عند غيرها ولا ريب انهُ مما يسبب هذا الاختلاف بين الفئتين الموافقة او ائتلاف القوم على هذه دون تلك ولهذا لكي يمكننا ان نحكم حكمًا صائبًا من جهة جودة عادة او رداءتها يجب ان نجرد تلك العادة عن ذوق اهلها او من يضادهم فان البوذينو والكوستيد الذين يحسبهما بعض الافرنج من اطيب ماكلهم هما من اكره الماكولات عند العرب حتى انه يسهل على كثيرين منهم تناول دواء مهما كان كريهًا اكثر من تناولهما ومن ثم لا يجب ان نسلم لابناء العرب بان الافرنج لا يميزون بين الطيب والخبيث من الاطعمة لانهم يكرهون الكبة واللحم النيء الذي ياكلهُ بعض العرب اكثر مما يكرهون هم البوذينو واللحم المنتن والجبن المدود الذي ياكلهُ الافرنج ولا يتقذرون منهُ لان ذلك ليس ناشئًا

عن شيء ذاتي يوجد في طبيعة ذلك الشيء المخصوص لان الشيء الواحد لا يمكن ان يكون طيبًا وخبيثًا او مكروهًا ومحبوبًا معًا من حيث هو هو في ذاته والا فاننا نلتزم ان نسلم باجتماع الاضداد وذلك محال بل انما هو مسبب عن قوة العادة واختلاف الذوق ولذلك يقال ان الذوق لا جدال فيهِ لاننا نرى من اهل البلاد الواحدة شخصًا يحب ما يكرههُ الجمهور ويكره ما يحبونهُ

ومن الامور البديهية ان اختلاف امزجة الناس والبلدان والازمنة يوجب اختلافًا في العادات ولهذا يلزمنا ان لا نغفل عن ملاحظة ذلك واعتبارهِ عند النظر في العادة والا فاننا نقع في خطا بين في الحكم عليها او لها وهو من الامور المسلم بها ان اكثر العادات وعلى الخصوص المسببة عن الهواء والذوق اضطرارية لا اختيارية لاننا قلما نرى عادة جرت بين قوم بعد الاتفاق عليها في جمعية يعقدونها لذلك بل انما اكثر العادات تدخل بين الناس بغتة فيضطر الواحد الى اتباعها جبرًا عنهُ خوفًا من مخالفة الجمهور فيها على ان احداث العادة يكون في الغالب تدريجيًا لا دفعة واحدة. واما العادة الناتجة عن التقليد فهي على الاكثر اختيارية تنتج تارةً من استحسانها وتارةً من طلب التشبيه بين

شخص واخر او فئة واخرى واحياناً من طلب المضادة وذلك
كمن يترك عادة قديمة بسبب استعمال شخص لها وجماعة هم ادنى
منزلة منهُ فيجتهد في اتخاذ عادة غيرها جديدة تجعل الفرق بين
الفريقين ظاهرًا جليًّا فاننا مثلاً نرى كثيرًا من العادات الجارية
في بيروت ناتجًا عن التسليم الاعمى وذلك كبعض عادات اخذوها
عن الافرنج ولا يعلمون سببًا حملهم على التمسك بها الا مجرد
كونها افرنجية غير ملتفتين الى كونها مفيدة لهم او غير مفيدة مقبولة
عند ابناء وطنهم او مكروهة لديهم وما اكثر العادات التي يتركها
اهالي بيروت وليس ما يحملهم على تركها الا اتصالها الى اهالي
الجبل وذلك لما تقدم او لانهم يرون قبحها حالما يرونها عند
غيرهم وهذه الاسباب توجد عند الافرنج انفسهم ثم لما كان لا بد
من اختلاف في الهواء والذوق واسباب التقاليد وغيرها كان
لا بد من الاختلاف في العادات المسببة عنها ومن هنا ينتج كثير من
الاختلاف بين العادات الافرنجية والعادات العربية لاختلاف
امزجتهم وبلدانهم وشرائعهم واديانهم ولذلك يسوغ لنا ان نقول
انهُ ليس كل ما عند الافرنج من العادات يوافق العرب ولا
كل ما عند العرب من ذلك يوافق الافرنج وانهُ لا يحق لاحد

الفريقين ان يلوم الاخر او يكرههُ لانهُ لا يرتضي بعاداتهِ ولا يتمسك بها ولكن يجب الاجتهاد في كل مكان وزمان في ابطال ما كان من العادات مضرًّا باداب الجمهور او صحتهم او مالهم

ثم ربما كانت عادةٌ مقبولةً عند قومٍ ونافعةً لهم في وقت ما ثم صارت مكروهةً عندهم او مضرةً لهم في وقتٍ اخر. فان لبس الطربوش ذي الزاف المعروف بالدلج مثلاً كان في ايامهِ مما يتفاخر بهِ اجدادنا وربما البعض من ابائنا وكذلك الطرطور والزربول وما اشبه واما الان فان من ظهر بين الجمهور بهذه الملابس يجعل نفسهُ عرضةً للاستهزاء ويعد من القدماء واصحاب الخشونة حتى ان الاكثرين في هذه الايام يتعجبون كيف امكن الاقدمين ان يتخذوا كذا ملابس او يقبلوها ومن ثم لا يليق بنا ان نجعل انفسنا عبيدًا للعادة بل بالحري نجعل العادة عبدة لنا نتركها متى شئنا ولهذا لا يكون امرًا غريبًا اذا كان اولادنا ينظرون في ما ياتي الى عاداتنا وملابسنا كما ننظر نحن الى الذين تقدمونا او اذا راينا البعض من اكبر المحامين عن العادات القديمة والمتمسكين بها يتركون عاداتهم ويتخذون عاداتٍ جديدة تروتهم مزمكين أو كما يقال مكيسين

ولا ريب ان العادة من شانها ان تكون من حيث خشونتها اولطفها بحسب درجة تمدن اهلها وكلما ابعد قومٌ عن حالة الخشونة تبعد عاداتهم عن حالة الوعرية وتتهذب اي ان العادات تتمدن بتمدن اهلها على اننا نقول بالاجمال انهُ لما كان الانسان غير كامل كانت عاداتهُ غير كاملة وكان فيها دايمًا عيوب كثيرة ونقايص شتى وان يكن قد ارتقى الى اسمى درجة من سلم التمدن

وهو امرٌ واضح انهُ لما تقدم من الاسباب يوجد اختلاف كبير بين عادات العرب والافرنج حتى انهُ لدى اعتبار ما بين عادات الفريقين من التباين والتضاد يمكننا ان نقول ان الافرنج لم يتعبوا في ايجاد عاداتهم بل عكسوا عادات العرب فكان من ذلك عاداتهم ومع ان ذلك يكاد يطابق الواقع تمامًا كما يظهر لمن تتبع عادات الفريقين لا يطابق الحقيقة لان مصدر عادات الافرنج ليس هو طلب معاكسة عادات العرب بل ما ذكرناهُ قبلاً من الاسباب حتى اننا اذا نظرنا الى عاداتهم في اجيالهم المظلمة نرى انها كانت من البربرية والخشونة على جانبٍ عظيم ثم خرجت في الاجيال المتوسطة من حالتها البربرية واتخذت هيئةً متمدنة نوعًا فصارت على الاكثر كعادات العرب الحاضرة ثم اخذوا في

تغييرها وتحسينها وتهذيبها شيئًا فشيئًا حتى وصلت في مدة نحو ثمان مائة سنة الى ما وصلت اليه الان وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون حتى يخيل انهم سيرجعون الى كثير من العادات القديمة التي تشبه عاداتنا وكانهم في امر العادة يمشون على محيط دائرة حتى يصلوا كل مدة الى النقطة التي خرجوا منها ثم يقطعون ذلك المحيط ثانية وهكذا الى ما شاء الله

القسم الثالث

مقابلة عادات العرب والافرنج

اولاً انهُ يوجد اختلاف واضح بين الفريقين من جهة ارخاء الشعر وحلقهِ فالافرنج ترخي شعر الراس وتحلق شعر الوجه واما العرب فبالعكس فاما ارخاء الشعر عند الفريقين فهو جارٍ على وفق الطبيعة فان شعر الراس وجد قبل وجود الطربوش والبرنيطة وشعر الشاربين واللحية وجد قبل وجود المقص والموسى ووجودهُ لم يكن عبثًا بل قصد بهِ الوقاية او الزينة او التمييز بين جنس وجنس فهو الكساء الطبيعي الذي جعلهُ الله لخلائقهِ الحية الحساسة كافة كلاً على قدر حاجتهِ وقد وجد العرب منذ عهدٍ مجهول لزوم ارخاء شيء من شعر راسهم كالناصية والقنزعة وراى

بعضهم في هذه الايام لزوم ارخائه كله اقتداء بالافرنج وقد زادوا على ذلك شعر الشاربين عمومًا وشعر اللحى خصوصًا ومعلومكم ان شعر الشاربين واللحية فضلًا عن فائدته في كونه كمصفاة تقي الات التنفس من المواد الهوائية والحلقوم والمنخرين من الاهوية الباردة الرطبة تمييز جنس الرجال من جنس النساء ولا سيما عند من كان غريبًا منهم واذ كان بعض العرب قد ابتداوا في حلق الشاربين واللحى نرى ان الافرنج قد رجعوا الى عادتنا في ذلك فان اللحية عندهم ليست الا كالاظافير يحلقونها متى شاءوا ولا جناح عليهم واما ما نراه من الاختلاف بين الافرنج انفسهم من جهة كمية المرخى من شعر الوجه حتى نرى بعضهم بلحية كاملة وشاربين وبعضهم بلحية بلا شاربين وبعضهم بشاربين بلا لحية وبعضهم بعارضين وبعضهم بعنفقة فهو مغاير على خط مستقيم الذوق العربي وذوق بعض الافرنج ايضًا وليس بعجب ان نرى بعضهم يحلق جانبًا من الشاربين واللحية ويطلق الجانب الاخر لكي تكون في وجوههم كل الاشكال التي يمكن العقل ان يتصورها ولعل لهم في ذلك حكمة ومقاصد لا يقدر العقل العربي او الشرقي على التوصل الى ادراكها

ثانيًا مما اختلفت فيه العرب والافرنج امر الملبوس وعلى

الخصوص من جهة ضيقهِ عند الافرنج واتساعهِ عند العرب ولا يخفى ان المقصود الاصلي من اللبس انما هو وقاية لجسم الانساني من البرد والحر وسترة عن النظر ولهذا كان لكل بلاد وفصل ملبوس يوافقهُ وربما كان ملبوس كل فريق اكثر موافقة لبلاده من ملبوس الفريق الاخر وملبوس الافرنج الضيق يوافق حركتهم السريعة الناتجة من شدة اعتبارهم لقيمة الوقت وحرصهم وملبوس العرب الواسع يوافق حركتهم البطيئة الناتجة من عدم اعتبارهم لقيمة الوقت وقلة مطامعهم ومن تعليقهم امر الرزانة الادبية على الرزانة الطبيعية ولولا ذلك ما رايناهم يصرفون جزءًا كبيرًا من حياتهم على الطريق ولكن مزاحمات الافرنج سادية في اثرهم وستعلمهم بعد قليل انهُ يفوتهم منافع ومكاسب كثيرة من بطء حركتهم وقد ورد في التواريخ ان الملوك القساة كانوا اذا ارادوا قهر رعاياهم واذلالهم يلبسونهم اللبس الطويل الواسع لكي يفقدوا بذلك حمية الرجال ونشاطهم وشجاعتهم. ثم مما خالف فيهِ الافرنج العرب في امر الملبوس هو انهم يعتنون اعتناء تامًّا بتدفية ايديهم بلبس الكفوف وارجلهم بلبس الجوارب ويتركون رؤُوسهم مكشوفة لعناية الطبيعة خلافًا للعرب فانهم يدفئون رؤُوسهم

بالبس العراقية ثم اللبادة ثم الطربوش ثم العمامة ويتركون ارجلهم مجردة تهتم بنفسها ولهذا نظن ان النزولات تاتي الافرنج من رؤوسهم والعرب من ارجلهم وربما كان ما حمل الافرنج على عادتهم معرفتهم ان القلب الذي منهُ يتوزع الدم مصدر الحرارة الى باقي الاعضاء هو اقرب الى الراس من الاطراف واقل احتياجًا الى التدفية فضلًا عن الكساء الطبيعي الذي كساهُ الله بهِ وبناء على هذه العادة نرى الافرنج يدخلون البيوت باحذيتهم مكشوفي الرؤوس خلافًا للعرب فان الامر هو بعكس ذلك عندهم ولا ريب ان عادة الافرنج تنافي مبادي النظافة ولاسيما عند العرب الذين من عاداتهم الجارية الجلوس على الارض في المكان الذي يطاونه باقدامهم فضلًا عن ان اكثرهم يحسبون النعل مع ما يحملهُ من الاقذار ينجس ما لامسهُ وهو امر واضح ان ملبوس رجال الافرنج ليس في شي من الظرف وما تجاوز منهُ حدود الاعتدال في القصر والضيق بحيث لايستر من الجسم الالونهُ شنيع في الغاية ومضادٌ للحشمة والادب لانهُ يفي بحق الوقاية ولا يفي بحق السترة خلافًا لملبوس العرب. وكنت اريد ان اقطع عرضًا من جبة العرب فاصل بهِ طول جبة الافرنج التي لاتصل عند البعض

الا الى ما فوق الحجز وا - افتق عرضين من سروال العرب لا صل بهما عرض البنطلون الافرنجي لعلنا حينئذٍ نصل الى ملبوس معتدل وموافق الفريقين . على اننا نقول ان اللبس في نفسهِ ليس شيئاً بالنظر الى حقيقة الانسان واحبُّ اليَّ ان ارى افرنجياً في تمدنهِ بلبس عربي من ان ارى عربياً غير متمدن بلبس افرنجي وهو ظاهر ان اعظم اكابر الدنيا والذين اعطوا العالم الشرايع والاديان والذين الهموا العالم من عظمائه كانت ملابسهم محتقرة في اعين الافرنج والعرب في هذه الايام وهي مع ذلك لم تمنع تقدمهم ونجاحهم ولا تقلل اعتبارهم في اعيننا الان

ثالثاً من جملة الاختلاف بين الفريقين امر الاطعمة وادوات الاكل فاما الاطعمة فان الافرنج يقصدون في اكثرها النفع اكثر من اللذة ولاسيما حلوياتهم لانها تكون في الغالب لطيفة خفيفة على المعدة بخلاف العرب فانهم يقصدون على الاكثر اللذة ولهذا تراها في الغالب غليظة وثقيلة على المعدة وذلك لكثرة ادامها غير انهُ من شان اطعمة العرب ان تقوي المعدة وتعودها منذ الصغر على الكد في هضم ما يتناولونهُ من المواد الغير الناضجة والكثيفة ولهذا نرى معد الذين لم تتهم تلك الاطعمة

في سن الطفولية قوية جدًّا حتى صار يشكل على اطباء الافرنج ان يعرفوا سببًا يحماون عليهِ عدم تاثيرها في متناوليها فحكم بعضهم على ان صحنًا من المجدرة مع فحل من البصل كافٍ لان يقتل عربيًّا وبالاحرى افرنجيًّا

ثم ان عادة الافرنج الاكل جلوسًا على كراسي حول مائدة عالية مغطاة بغطاء من كتان او قطن او ما اشبه واستخدام السكين والشوكة لتناول الاكل ومناولة من يواكلهم بخلاف العرب فانهم ياكلون جلوسًا على الارض حول خوان من الجلد او صدر من النحاس او طبلية من الخشب يفرشون الغطاء تحتها لا عليها مضادةً للافرنج ويتناولون الاطعمة بايديهم التي يلقبونها بشوكات ادم ومن هنا جرت عندهم عادة الغسل قبل الاكل وبعدهُ بخلاف الافرنج الذين حرمتهم الشوكة والسكين هذه العادة فاوقعت خللاً في مبادي النظافة عندهم كما لا يخفى وتاكلاً في اسنانهم ومع ان الافرنج لا يشتركون في الاكل من صحن واحد ولو كان من الارز المفلفل ربما اكل العرب بملعقة واحدة واشترك عشرة منهم في اكل المرقة من قصعةٍ واحدة ولا ريب ان ذلك من شانهِ ان يحدث تقززًا في من لم يعتدهُ وربما دبَّت بواسطتهِ امراض معدية

بين اصحاب هذه العادة ولعل ما حمل العرب على هذا الاشتراك تعليقهم على المواكلة سرًّا ادبيًا يسمونهُ بالمالحة واعتقادهم ان زيادة الاشتراك يتولد منها زيادة الالفة وتقوية رباطات المحبة ثم ان العرب يحسبون الطعام ولا سيما الخبز الذي يسمونهُ بالعيش مكرسًا ولهذا كثيرًا ما يتعجب الافرنج عند ما يرون عربيًا يرفع كسرةً من الخبز سقطت بالصدفة على الارض فيقبلها ويضعها على راسهِ مستغفرًا الله عن ذلك بخلاف الافرنج فان اعتبار الخبز عندهم انما يقوم بما ينالونهُ منه من الغذاء وربما كان شدة اعتبار العرب للعيش يعفيهم عن القيام لاستقبال من اتاهم زائرًا على الطعام معتذرين عن تادية هذا الضرب من الاعتبار للضيف بحرمة العيش واما الافرنج فاذا اتفق انهُ دخل عليهم احد وهم على الطعام فانهم ينهضون عن الاكل لا لاستقبالهِ او عزيمته بل لكي يدلوهُ على محل الاستقبال حيث يلتزم ان ينتظرهم الى ان ينتهوا من الاكل . ثم ان العرب من عادتهم ان يدعوا كل من حضر للاكل معهم مهما كان عدد الحاضرين ومقدار الطعام وربما دعوا عشرة على رغيف من الخبز وقطعة من الجبن تجملًا والحاحهم بالعزيمة على الاكل تجاوز حدود الاعتدال

فاذا لم يقدروا ان يقنعوا الواحد على الاكل معهم بالكلام فربما امسكوهُ واجلسوهُ على المائدة جبرًا عنهُ وتراهم بعد ان يشبع يلحون عليهِ ان ياكل ولو فوق طاقتهِ لانهم يقولون ان الاكل هو على قدر المحبة واذا كثر عدد المعدودين الخاطر في المحل فانهم يلزمونهُ ان ياكل لاجل خاطر فلان وفلان اذا كان الضيف عربيًا ولاجل خاطر فلانة وفلانة اذا كان افرنجيًا ولايخفى الاوقات التي تُصرَف في كذا تجملات والتخمات التي تحصل من كذا الحاجات واما الافرنج فانهم في الطرف الاخر من هذه المسئلة لانهم لايتكلفون في امر العزيمة الا الى قولهم تفضل كل معنا ولا يكلفون الضيف الا الى جوابٍ قصيرجدًا وهو نعم او لا ولا يطالبون منهُ اذا قبل عزيمتهم ان ياكل ما لا يحب او فوق طاقتهِ وكلمة المجابرة في الاكل لا وجود لها في لغاتهم والقول ان الاكل على قدر المحبة هو من اغرب الامور عندهم لان القول الصحيح عندهم هو ان الاكل في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة

قيل ان احد الافرنج دعي الى بيت احد اكابر لبنان وفيما هم على الطعام اخذوا يناولونهُ من الخمر حتى روي ثم اخذوا يلحون عليهِ ان يشرب اكرامًا للست فلانة ولاجل خاطر الست فلانة

حتى سكر فنام تلك الليلة في بيت ذلك الشيخ وفي الغد ركب حمارهُ راجعاً في طريقهِ نمر على عين ماء فعرض الحمار على الحوض فبعد ان شرب رفع راسهُ مرتوياً فاخذ يلح عليهِ ويضربهُ ويقول لهُ اشرب لاجل خاطر الست فلانة واكراماً لخاطر الست فلانة فاجفل الحمار راجعاً الى الوراء ولم يشأْ ان يشرب فوق طاقتهِ فقال الافرنجي في نفسهِ حقاً ان الحمار هو احكم مني في صالح نفسهِ وهكذا انصرف وقد استفاد مثالة معتبرة من حيوان هو مثل في الجهل وعدم المعرفة

اني منذ نحو ثلاثين سنة سافرت مع تلميذ لي افرنجي طالباً للسياحة فاوصلتنا التقادير الى مدينة شمالي بيروت فنزلنا في بيت احد معتبري البلد والظاهر انهُ كان من جماعة المتفرنجين الا انهُ لم يتعلم من عادة الافرنج الا انهم لا يعزمون على الاكل ولاجل تعاسة رفيقي الافرنجي كان قد تعلم في مدة اقامتهِ في لبنان عادة العرب في الالحاح على الضيف بعد الشبع حتى تعود ان يبقي دائماً في معدتهِ زاوية فارغة لكي يذخر فيها تلك اللقيمات الخاطرية فلما حضر الطعام جلسنا على الارض حول السفرة فلما تناول رفيقي المذكور قليلاً من الطعام تحرك وابعد

قليلاً منتظرًا العزيمة لكي يكمل عشاءهُ فسالهُ صاحب المحل ما بالك توقفت عن الاكل فقال الحمد لله شبعنا وعوضًا عن ان يثني عليهِ العزيمة قال انا اعلم ان الافرنج لا يحبون العزيمة على الاكل ودعا الخادم ان ياتيهُ بالطشت والابريق ليغسل يديهِ فالتزم المسكين ان يقوم عن العشاء جائعًا. ومما يناسب هذا المقام ابياتٌ قالها جناب الشيخ ناصيف اليازجي الشهير الذي لا نشك بانهُ من اكبر المحافظين والمحامين عن العادات العربية يصف بها نفسهُ بينما كان مرةً على سفرة احد الافرنج وذلك في ايام شبابهِ وهي الاتية

ولديَّ طاولةٌ يلوح بصدرها ... سنيورةٌ نسبت الى الغزلانِ

تجد استتار الراس عيبًا مثلما ... يجدُ الخضوع لها من الايمانِ

فكأنهم في المرأَسُ المرأَة الـ ... مكتوب ضمن صحيفة الرحمانِ

قرأُوا لعكسهم القراءة انها ... راسٌ لهُ فاتوا على برهانِ

والشيخ يزحم في يدي فرتيكةً ... ابدًا تدبُّ كارجل السرطانِ

اهوي بها فتكاد تسقط من يدي ... لولم اداركها بكفي الثاني

فكأنني بدويةٌ نجديةٌ ... تمشي على القبقاب بالفسطانِ

رابعًا ان الاختلاف بين الفريقين من جهة الامور المتعلقة بالمعاشرة كثيرة ومتنوعة وذلك اولاً من جهة التعرف فان

العادة العربية تعطي حقًا لكل عربي ان يمسي او يصبح كل من صادفهُ ولو لم يرهُ قط حتى انهم يحسبون ترك هذا الفرض من اكبر علامات الجفوة والخشونة او كما يقولون ضربًا من التيسنة وعلى ذلك قول بعض عامتهم

مر التيس وما سلم فكأنهُ خنزير مبلم
شكوا مسمار بين عينيه مرة اخرى يتعلم

وربما قال لهُ اني ذبت شوقًا اليك مع انهُ لا يعرفهُ وليس عندهُ شيء من المحبة نحوهُ وجميع بيوت العرب مفتوحة لكل زائرٍ غريبًا كان او قريبًا واذا كان افرنجيًا فلا يحتاج الامر الى توصية او واسطة معرّفة بل يكتفون ان يروهُ بلبس افرنجي وحينئذٍ يصير البيت بيتهُ والامر والنهي لهُ وهو عندهم قنصلٌ او طبيب او شريف او غني واذا لم يتوسموا تحت برنيطتهِ شيئًا من هذه الصفات فعلى الاقل يتوسمون ان عندهُ معرفة بكشف الخبايا ومعندلائل عليها واما الافرنج فان عادة اكثرهم ان لا يكلموا من لا يعرفونهُ او تكون واسطة ثالثة لتعريفهم بهِ ويقال انهُ اذا اتفق ان غريبًا حيّى بعض امهم بالسلام فالجواب الوحيد عندهم لماذا تسلم عليّ ولا معرفة بيننا. ثانيًا من جهة السلام فان السلام

عند الافرنج قصير مفيد فان كلماته من المسلم اوقاتكم سعيدة كيف حالكم وجوابهُ من المسلم عليهِ واوقاتكم سعيدة انا طيب او منحرف المزاج انا ممنون لكم ثم ياخذون في الحديث والاخبار والاستخبار بخلاف سلام العرب فانهُ طويل عريض عديم الفائدة وذلك لان اصطلاحات التحيات والتسليمات عندهم ربما اشغلت ربع ساعة او اكثر من الوقت واما عدم فائدتهِ فانما ينتج من فراغ اجوبتهِ من الافادة بالمقصود فانك اذا سالت الواحد مرة بعد اخرى عن حالهِ فيجيبك بقولهِ الله يسلمك الله يخليك الله يحفظك تحت نظرك وهلمَّ جرًّا وليس شيءٌ منها حالهُ وقد بلغني انهُ اتفق ان احد الافرنج سال بعض العرب عن حالة ابنةٍ لهُ عزيزة كانت مريضة ومع شدة شوقهِ الى معرفة حالها عجز عن استخلاص جواب مفيد من المخاطب ومع انهُ حصل على اجوبة كثيرة لاسئلتهِ فارق المخاطب ولم يعلم هل ماتت المريضة او طابت وهل هي احسن في صحتها او اردا وكذلك الاختلاف في امر الكتابات ليس باقل منهُ في امر المخاطبات فان الافرنج يفتتحون كتاباتهم بسيدي او سيدي العزيز ثم ياخذون في الاخبار او الاشغال واما العرب فان الاخبار والاشغال عندهم تغرق

في بحار التخيلات والوجد واللواعج والهيام وما اشبه مما قد ورثناهُ من المرحومين ولو كانت الكتابة من عدو الى عدوهِ حتى انهُ في الغالب لايمكنك ان تستفيد من رسالة طويلة حالة الكاتب او خبرًا تطلبهُ او مكانهُ وهذا مما يجعل كتابات العرب عديمة القيمة عند الافرنج وغيرهم من ابناء العرب المتمدنين ويحقّ لنا ان ننبه ابناء بلادنا الى اصلاح تحياتهم وكتاباتهم من هذا القبيل والاقتداء بالبدو الذين قد سبقوا الحضر في هذا المعنى لان ذلك عندهم مختصر في الغاية ومما يليق ذكرهُ بهذا المقام اعتماد العرب في مخاطباتهم على امرين احدهما ارداف ما يقولونهُ باجلّك او بلا معنى او بلا قافية وما اشبه وبذلك ينبهون افكار السامعين الى معانٍ رديئة قبيحة ولو لم يردفوا كلامهم بهذه الكلمات لما انتبهت الافكار اليها . والامر الثاني تحاشيهم ذكر شيئين معًا بينهما تباعد من جهة الرفعة والحطة كالراس والرجلين مثلاً والطربوش والحذاء واما الافرنج فليس عندهم شيءٌ من ذلك فان الواحد منهم ربما ذكر راسهُ مع رجليهِ وصرمايتهُ مع لحيتهِ من دون ان يحط بشان شرفها او ينسب اليهِ ادنى خلل في امر الاداب وذلك مما يجعل لغتهم بسيطة نظيفة ومعاشرتهم هنيئة

نفية. ثم ان الافرنج من عادتهم عند السلام ان يهزوا اليد ويرفعوا البرنيطة للرجل او المراة واما امر التقبيل فهو غير دارج عند اكثرهم الا بين مرأة ومرأة واحياناً بين رجل ومرأة وتقبيل الرجال عندهم للنساء عند السلام نلحقهُ بابواب الخلاعة التي يصلون بها الى حد التناهي ولاسيما في مراسح الرقص التي اعمالها وحركاتها كافية لان تخنق عربيّاً مهما كان متفرنجاً والامل ان ابناء العرب لا يصل بهم تمدنهم الى هذه الدرجة من الخلاعة على ان العرب متطرفون في هذه المسئلة من الجهة الاخرى لانهم لا يلتفتون الى النساء بالكلية ولا يتنازل رجالهم الى اعطاء المرأة حقها من الاعتبار المعطى لها من باري الطبيعة والاشتراك معهم في المعاشرة الذي يكون منهُ فائدة للفريقين ولهذا نرى النساء عندهم في حالة يرثى لها من الجهل والمسكنة مع اننا اذا راجعنا تاريخ التمدن والتقدم في اوربا نرى انهُ لم يبتدئ الا بعد رفع درجة النساء والاعتناء في تهذيبهن وما يظهر لنا انهُ افراط عند الافرنج من جهة اكرام النساء وتفضيلهن في بعض الامور ليس هو الا واسطة من جملة الوسائط التي استخدموها لرفع شان هذا الجنس وتقليل المضار التي تلحق بالجمهور من اختلاطهن بهِ لو تُرِكن في حالة الجهل والانحطاط

كما بينا ذلك بالاسهاب في خطابنا عن تعليم النساء

خامسًا ان الافرنج من شانهم الثبات على كل شيء والتدقيق في الامور وهم لايعملون شيئًا من دون قاعدة او قانون فنراهم قد جعلوا قوانين واصولاً لجميع الامور من كلية وجزئية رفيعة ووضيعة حتى الفلاحة والزراعة والطبخ والسفر برًّا وبحرًا والخياطة والبناء لها جميعًا قوانين مكتتبة لاتتعداها وكلما كشفوا شيئًا جديدًا يضعون لهُ قوانين ويتركون ما تعطل من الامور القديمة ويغيرون ما كان منها اقل موافقة بالاوفق بخلاف العرب فان اكثر الامور عندهم توخذ بالتسليم وكذلك الافرنج لايتمسكون بعاداتهم تمسكًا اعمى بل نراهم دايمًا يغيرون كثيرًا من عاداتهم من الاحسن الى الاردا او بالعكس ولا يحافظون عليها بناء على مجرد كونها قديمة بل يبدلون ما ظهر ضررهُ منها بما هو انفع ومن لاحظ عاداتهم في اجيالهم المختلفة يرى انها كانت في الجيل الرابع عشر مثل اقدم عادات العرب وهكذا نكون نحن متاخرين عنهم نحو اربعماية سنة في هذا المعنى واما العرب فانهم يتمسكون بعاداتهم كل التمسك مع علمهم بوجود عادات احسن منها مدعين بان عاداتهم هي الاقدم وهم يميلون طبعًا الى القديم ويحبون ان يبقوا القديم على قدمهِ

وما اشد ضرر هذا المبدا لهم ولهذا ترى العالم يتقدم وهم باقون مكانهم ومتشاغلون في مدح عاداتهم وذم ما يخالفها اذ يحسبون انفسهم انهم هم الاصل وان بقية الشعوب متفرعة منهم واخذة عنهم واذ كان هذا دابهم ينبغي لهم ان لا ياخذوا شيئًا من الشعوب المجاورة لهم بل يقراوا كتب اقدم المورخين لينظروا ماهي العادات الاكثر قدمية في الدنيا ويتمسكوا بها لكي يكون لهم زيادة فضل

سادسًا من جملة ما اختلف فيهِ الفريقان نظر احدهما الى الاخر ويغمنا ان نقول ان اكثر الافرنج الموجودين في بلاد العرب ينظرون الى العرب نظر الاستخفاف والازدراء ويعاملونهم معاملة من شانها ان تدقر حاسيات العرب من الجهة الواحدة وتحط شان الافرنج من الجهة الاخرى ولا نرى تلك المعاملة غالبًا الا من ادنياء الافرنج الذين لم يتيسر لهم التربية اللازمة واما اكابرهم فلا ياتون اعمالاً كهذه لانهم يعلمون انها تهين شرفهم وتغاير مبادي التمدن وحقوق الانسانية والادب الذي يطلب ممن كان ضيفًا او غريبًا واننا لا نبري ابناء بلادنا من اتيانهم امورًا من شانها ان تجلب عليهم هذا الاحتقار ومن اكبرها عدم محافظتهم على شرف النفس واعتبار الذات الذي لا بد منهُ لكل انسان يريد ان يكون

معتبرًا من الاخرين واما العرب فان نظرهم الى الافرنج يختلف كثيرًا عن نظر الافرنج اليهم فانهم في الغالب يقدمون لهم كل اعتبار وربما اضرُّوهم بذلك ويجتهدون في ان يكرموهم كضيوف على اننا نقول ان جميع ضيوفنا من الافرنج الا ما ندرهم من اهل الاعتبار واصحاب المقامات السامية من سياسية وتجارية ودينية واننا مديونون لكثيرين منهم من جهات مختلفة وربما كان مما يحمل الافرنج على احتقار العرب والعرب على اعتبار الافرنج هو ان نظر اولئك يقع بالجملة على عموم الاهالي وغالبا على وضيعها لان معاملاتهم ولا سيما المسافرين منهم تكون في الاكثر مع بحري ثم عتال ثم مكاري ثم ترجمان سياح ولا تخفى حالة هولاء في الدنيا قاطبةً او على قوم تكون يدهم ممدودة للبخشيش او الصدقة او معاشرتهم تكون مع اقوام من العرب الذين دناءتهم تحملهم على القذف في جنسهم كانهم قد نسوا ان الطاعن في جنسهِ هو كالطاعن في نفسهِ ونظر هولاء لا يقع الاَّ على اصحاب الرتب والاعتبار والثروة وهلم جرًّا ممن يستحق الاعتبار اينما وجد . ومما يجب ان يسلي ابناء العرب لدى هذه المعاملات ان العرب الذين يتوجهون الى بلاد الافرنج ينالون من اهلها الاعتبار التام

والمساعدة الكاملة ويُسبون هم وكل ما لهم مقدسين ولو كانوا من عامة الناس عند العرب هذا وان كل من حقق النظر في الفريقين يحكم ان العرب هم خارجون من تمدن والافرنج خارجون من خشونةٍ ولا بد ان تظهر اثار ذلك في بعض الاوقات في كلٍّ منهم

سابعًا ان الاختلاف كثير بين الفريقين من جهة الاداب فان الافرنج يخالفون العرب في جلوسهم ومشيهم وحركاتهم ومعشرهم واجتماعاتهم ووسائط الانتقال والحركة واعراسهم ومآتمهم الى غير ذلك مما لا يسعنا الوقت لاستيفائهِ واذا شئتم ضابطًا عموميًّا لمعرفة تفصيل الاختلاف فخذوا عادات العرب القديمة واعكسوها فتكون منها عادات الافرنج الا فيما لا يمكنهم ان يخالفونا فيهِ اما من جهة الطبيعة كالمشي على الرجلين مثلاً فاننا لا نقدر ان نعكس فنقول ان الافرنج يمشون على رؤُوسهم وان كان يوجد بيننا وبينهم اختلاف من جهة هيئَة المشي واما من جهة الديانة فاننا نحن نقرُّ بوجود الله فلا يصح ان نقول انهم هم ينكرونهُ لاننا نحن نعتقد بهِ واما من جهة المبادي العلمية فان اربعة واربعة عندهم تساوي ثمانية كما هي عندنا وهكذا في باقي الامور ومما نتفق نحن واياهم فيهِ هو اننا جميعًا ذوو طبيعة واحدة بشرية مائلة الى الفساد والشر وبيننا

وبينهم قرابة اولاد الاعمام فان الافرنج هم اولاد يافيث والعرب اولاد سام وكلاهما من اب واحد وهو نوح ولو ذكر الفريقان هذا الاتفاق في الطبيعة والقرابة العصبية لغرق فيهِ ما يوجد بينهم من الاختلافات العاديّة وما ينتج منها من حركات التنور ولو علموا ان لهم ابًا واحدًا وهو ادم وامًّا واحدةً وهي حوا والهًا واحدًا وهو مالك السموات والارض ومآلاً واحدًا وهو التراب وآخرة واحدة وهي الثواب او العقاب لكانوا يعيشون معًا بالمحبة والالفة ومساعدة بعضهم بعض مدة غربتهم على الارض سواء كانوا على سطحها الغربيّ والشرقيّ

هذا واني في مقابلة العادات يتجه كلامي الى عادات العرب الاصلية التي لم يدخلها شيءٌ من عادات الافرنج الجديدة والى عادات الافرنج الحاضرة لان عادات العرب الحالية تختلف كثيرًا عن عاداتهم الاصلية التي دخل كثيرٌ منها في خبر كان وقد دبَّ في كثير منها مرضٌ عضال لا يرجى شفاؤُها منهُ وكذلك القول في عادات الافرنج القديمة واذا بقي الحال كما نرى فعلينا معاشر العرب ان نهيئ اكفانًا لما بقي من عاداتنا القديمة لاني ارى جيوش عادات الافرنج هاجمة عليها بكل قوة وعزم واذ كانت رجا لها

اكثر عددًا وقوة من رجال عاداتنا وهي محفوفة بقوة العصبية القائمة على مباني واسس حب الوطن الراهنة والحذق في الصنائع والتدبير والالات والثروة يخشى من ان تقع الكسرة في اخر الامر على عاداتنا وتدور عليها الدوائر وبناء على ذلك رايت ان اختم خطابي بنصيحة لابناء الوطن قدمتها في الوطنية الحادية عشرة من وطنياتي المعروفة بنفير سورية فاقول

يا ابناء الوطن ان كل شيء ثمين في هذه الدنيا قابل التقليد والتزوير وبمقدار ما يكون الشيء غالي الثمن ومرغوبًا يجتهد اصحاب التزوير في تقليده وعرضه على الجمهور نظير خالص وكما يدخل التزوير في البضائع والماكولات والادوية يدخل ايضًا في بضاعة التمدن التي هي غالية القيمة وجليلة القدر ومرغوبة جدًا واننا نرى جيلنا الحاضر في خطر واضح لاجل اسباب متنوعة من الاعتماد على ضرب من التمدن لا يستحق الاسم ولا ياتي باثمار التمدن الحقيقي . ولشدة اركانهم بهِ واعتمادهم عليهِ يخشى من ان يكتفوا بهِ فيتوقف النجاح بسببهِ . فانهُ اذ كان الافرنج على جانب عظيم من التمدُّن وهم اذا اخذوا بالجملة في درجة من التمدن اعلى من ابناء الشرق وبالتالي من ابناء هذه البلاد التي كانت في

دورها في الازمان السالفة سريرًا للتمدن ومركزًا للذوق والرونق ولما كان لكل غريب بهجة ولكل جديد رهجة وكان الدهر افرنجيًّا وكانت العادات والذوق الافرنجي اشد سطوةً مما لابناء الشرق من ذلك ولا بدَّ من ان تغلب عليهِ يخشى من ان الاكثرين من اهالي بلادنا الذين هم من اميل الناس الى التقليد واقدرهم عليهِ يكتفون من التمدن بتقليد ما امكنهم تقليدهُ من عادات الافرنج وملابسهم ومزاياهم متوهمين ان ذلك كافٍ لان ينظمهم في سلك المتمدنين ويجعلهم اعلى من ابناء جنسهم واهالي بلادهم وقد فاتهم انهُ انما يجعلهم غرباء في اعين ابناء وطنهم ومحتقرين كمتقلدين او منتحلين عوائد او لابسين اثوابًا لا يستحقونها في اعين الاجانب . ومع اننا نعتقد بان اكتساب الفوائد من اية جهة او امة كانت هو من الامور المستحبة والمسلم بها عند كل عاقل وبان اكثر فوائد التمدن تاتينا من الجهة الغربية وبان كثيرين من اهاليها ربما يستحقون الاعتبار التام لا يمكننا ان نسلم تسليمًا مطلقًا اعمى بان كل ما ياتينا من هناك هو مفيد في ذاتهِ وموافق لنجاح الشرقيين وهواء بلادهم الذي هو من اكبر المؤثرات في الانسان وعلى الخصوص بهذا الاعتبار بل نعلم ان الذين يقملون متمسكين بكل ما اتاهم

من الديار الافرنجية من دون فحص مدقق وانتقاد صحيح وانتخاب ما جلّ منها فقط مما يفيدهم تقدمًا وتهذيبًا نظير الافرنج طالما يخدعون انفسهم ويقبضون الدرهم الزائف مع الدينار الخالص ويرقعون اثوابًا بالية بخرق جديدة. وهكذا القول في الاشخاص ولا يخفى ان من استهجن كل شيء لاجل مجرد كونهِ افرنجيًا واستحسن كل شيء لاجل مجرد كونهِ عربيًا وبالعكس يقع في تطرفٍ مضرّ. ولما كان الناس يميلون طبعًا الى الاشياء الظاهرة اكثر من الباطنة والى التمسك بالعَرَض اكثر من الجوهر ولا سيما في ما يستلزم سياحة الفكر وتروّي الذهن ودقة النظر كالعلوم والديانة مثلاً كان هذا دابهم في امر التمدن ايضًا فيظنون ان التمدن يقوم بنظام العيشة وترتيب البيوت وظرافة الملابس والاكل على الطاولة ولطافة الاحاديث واختلاط النساء مع الرجال واكتساب معروف لغتهم الاصليّة وما اشبه ذلك من الصفات والاعمال والمزايا التي لا فائدة منها في الغالب الا الاضرار بالصفات الاهلية والفضايل التي يمتازون بها نظير امة مخصوصة ممتازة عما سواها مع ان هذه ليست باكثر من قشور او اوراق شجرة التمدن ومن ابعد نتائجهِ وازهد فوائدهِ او هي اثمار اجنبية علقت وقتيًا على

اذيال شجرة التمدن . قال الشاعر

لا يعجبنك اثوابٌ على رجلٍ
دَعْ حسن اثوابهِ وانظر الى الادبِ
فالعودُ لو لم تفح منهُ روائحهُ
لم يفرق الناس بين العود والحطبِ

انتهى